تركوهم يعانون ذكرى المأساة فيه لتزورهم أطياف ذكرى عائلات خانت العِشرة

دار المسنين مأوى من انقطعت بهم سبل الحياة (١-٢)

تحقيق / الخضر عبدالله

الموضوعات كثيرة والقصص الغريبة أكثر، فمرة تجد أختاً تخلّت عن أختها ،وأناساً تخلّوا عن أقاربهم، ولكن أن تجد أناساً يتخلون عن والديهم فهذا أمر نادر الحصول في مجتمعاتنا الإسلامية، وأسباب ذلك معقدة، وإن حدثت فنتيجة بُعد عن دين السلام الروحي والفكري، والمجتمعي.

في أول خطوة لك في الدار وأول نظرة تنظرها إلى وجوه المسنين النزلاء بالدار ترى الكثير من الخيوط التي نسجها الزمان والتي من خلالها تستطيع قياس آلام المسنين أو قياس فرحهم , حين تراهم في فترة استراحتهم يجلسون كلٌ في فلكه يجتر الذكريات، فدار المسنين الكائنة حي عبد القوي بمديرية الشيخ عثمان بعدن .. تحمل الكثير من الذكريات التي لا زالت عابقة في أعماق المسنين ..

"الأمناء" نزلت إلى الدار تستقرئ الذكريات وتسلط الضوء على فئة من المجتمع،قدّمت في أول سنوات حياتها الكثير والكثير وكأن مصيرها دار المسنين كيف وصلوا !!؟ ولماذا !؟ هذا ما حكاه نزلاء الدار وإدارة الدار، إنها قصص ومشاهد جسدت حصيلة خلافات ذاكرة مؤسفة تسنّى لنا رصدها عبر لقاءات شملت معظم المسنين من نزلاء المكان البالغ عددهم 61 مسناً من كلا الجنسين والذين ما زالوا يمضون بهمومهم أو ممن مضت همومهم معهم .. فكانت حصيلة التحقيق التالي:

ذكريات الصبا وأيام الشباب

خلال جولتنا في الدار، والذي كان بمعيتنا المشرف العام للدار سعيد محب علي ، واستمعنا الى مسنين دفعتهم ظروف حياتهم الصعبة وفقدانهم السند والمعيل إلى الإقامة الجبرية في الدار. فأحدهم ويدعى أحمد صالح مصلح 65عاماً - الذي رفض التصوير- كان يعمل موظفاً في الجيش، جلس يتكلم طويلاً عن حياته في العمل، وعن أصدقائه الذين أحبوه وأحبهم، وغيرها من القصص، إلا أنّ الزمن انتهى به إلى هذا المكان، فقد مات أولاده الاثنين بعد وفاة أمهم .. "والذي بقي معي من الدنيا إلى وقت قريب أخي وهو مسن" ..لم يستطع العم أحمد مصلح إكمال حديثه حيث اغرورقت عيناه بالدمع وقال بنبرات حزينة خفيفة لقد مات هو الآخر في هذا المكان !! وأجهش بالبكاء تابع حديثه: " يا ابني أنا تعبان ومصاب بمرض بساقي ولم أستطع القيام أو السير" ، سألناه عن تقديم الخدمات في الدار فقال:" أشكر القائمين على الدار فهم ليسوا مقصّرين معنا خاصة الإدارة الجديدة" .

وعن مطالبه في الحياة أردف قائلاً :" أتمنى من الله أن يعم علي بالشفاء العاجل حتى أتمكن من أداء الصلاة ، كما أسأل الله المغفرة والرحمة ..

بينما المسن فضل محمد ناصر البالغ من العمر ٨٠ عاماً بدأ كالوردة المتفتحة بنور الإيمان رغم كبر سنه، فطوال الزيارة التي قمنا بها كان مبتسماً حتى التقينا به فقال : " أنا نزيل في هذه الدار ثلاث سنوات وشهرين وأتمتع براحة مطلقة من خلال المعاملة الحسنة التي يقدمها لنا العمال في هذا المكان وكذا الإدارة التي تجهد نفسها في الراحة من أجلنا ، وخاصة الإدارة الجديدة ، وهي كلمة حق أقولها " ، وسألته اين كنت تعمل ؟ فقال : " كنت أعمل في 14 أكتوبر كموظف رسمي ولديّ راتب ، ولديّ ولدان يزوراني بعد كل 15 يوم ومعاشي التقاعدي معهم" ، وعن سبب وجوده في هذه الدار ابتسم وكان متحفظاً نوعاً ما فقال: " يا ولدي أجيت هذا المكان من نفسي نتيجة الفقر وصعوبة المعيشة " ، وطلب مني التقاط صورة معه ونشرها في الصحيفة, سألته عن أمنيته في الحياة ومطالبه ؟ فقال :"أريد المغفرة من الله والرحمة والموت!" .

وحيدون في سرداب مظلم

أما المسن عبدالرحمن علي يحيى 75عاماً من جبل حبشي يفرس تعز، فقال: "كنت مشرف نظافة في مدينة القلوعة ، وأصبت بحادث مروري في رجلي ، وتوفيت زوجتي ولم يكن لي معيل يقوم بعلاجي وتقديم خدماتي ، فلجأت إلى هذه الدار للعناية بي، والحمد لله الأمور طيبة في هذا المكان ".

كما يتحدث إلينا المسن أحمد صالح شرفان من منطقة عوين مكيراس بالبيضاء وهو يتكلم اللغة الانجليزية بطلاقة قائلاً: "كنت حارساً في الجيش ، وبعت خدمتي ومنذ السبعينيات إلى عهد قريب عملت حارساً خلف ملعب 22 مايو - عمل خاص - ومن ثم جاء مسؤولون واستولوا على الأراضي في ذاك المكان وهددوني بالسلاح, وأصبت بمرض البرستات ، ولي في هذا المكان شهرين، ونتيجة عدم المعيل والاهتمام بي أجيت هذه الدار " ، وعن إذا ما كان عنده أولاد لم يفصح لي شيئاً ، وقال : "يا ولدي خلوني أموت هنا خلاص ما عندي رغبة في مواصلة الحياة! وهنا أحسن من الشارع وأطلب من الله الرحمة والمغفرة".

في الركن الآخر كان جالساً ينظر إليّ بصمت وحذر، وهو يسأل سعيد محب، المشرف للدار: "هذا الوليد ليش يصور وإيش يكتب؟ يرد سعيد: "هذا مندوب صحيفة " الأمناء" جاء ليعمل موضوع عن الدار ويريد منك تتكلم معه" اقتربت منه وأنا أرى نظرة الخوف في عينيه ، نظر لي وهو يقول: "لا يا ابني لا أستطيع الحديث معك" ، وعندما سألته: لماذا..؟ أجابني: "لا أريد الحديث كفاية أنني هنا أتمتع بالحياة الطيبة! ".

نساء طال بهنّ العمر

وفي جناح النساء المسنات لا يختلف الحال، فهناك نساء طال بهن العمر ليشهدن رحيل الأحياء، وجحود الأبناء؛ حيث أصبحت حياتهن فارغة , وليس لديهن حتى القدرة على التذكر ،وما يلفت نظرك في هذا الجناح أن غالب النزيلات شعورهن مقصوصة!!! .. سألت إحدهن : هل لديك أولاد ؟ أجابت: "ليس لي إلا الله سبحانه" ، وتقول : "الحمدلله مرتاحة ولا يعكر صفو حياتنا سوى المرض الذي أجهدنا ".

في هذه الدار التي تضم 45 مسناً و16مسنة ويحتوي على أربعة أجنحة ، اثنان منها للذكور، وواحد للنساء ، والرابع للإدارة والمرافق الأخرى ..

لَتمتني العديد من الحكايات التي سمعتها في الدار فكهأنها تحكي دراماً مؤلمة ، وتصور قهر الزمن ، وجحود الأبناء والأقارب في حق من وهبهم الحياة ، وأغلب المسنين في الدار تجاوزت أعمارهم السبعين والثمانين عاماً , لايملكون سوى الدموع كلما استرجعوا الذكريات ، واذا سألت أحدهم عن أولاده يقول دون تردد : ماتوا وتركوني وحيداً !!!.. عشت هموم المسنين التي غرست في نفسي حزناً عميقاً ، جعلني أردد : لا حول ولاقوة إلابالله.. هل يستحق هؤلاء كل هذا الجحود والنكران من فلذات الأكباد ؟!!

قصص ومشاهد توجع القلب من وسط دار المسنين في عدن